معاني التقديم والتأخير في كتاب الله

بقلم: قاسم محمد عبد الرزاق الكبسي

مقدمة:

الحمدلله الذي علمنا ما لم نكن نعلم ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؛ وبعد فهذه محاولات بسيطة لشرح ظاهرة التقديم والتأخير في كتاب الله تعالى وبيان الناحية البلاغية وما تفيده في معنى يستتر وراء هذا الأسلوب مما فتحه الله عليَّ ومما استفدته من مطالعتي لكتب البلاغة وعلوم العربية ، مبتغياً بهذه الملاحظات والتعليقات الموجزة فتح أذهان المسلمين على ما يحويه كتاب الله من أسرار معنوية لطيفة تختفي وراء أساليبه اللفظية الباهرة ونظمه الدقيق المعجز ، راجياً أن أكون بها مصيباً فإن كان . . . فالله الهادي والموفق لي في كل ذلك وإن كانت الأخرى فالخطأ مني ومردود عليّ مستغفراً الله تعالى منه ، سائلاً إياه الهداية والسداد لي وللمسلمين كافة والله من وراء القصد وهو الغاية .

أولاً: تقديم الأفضل على المفضول:

١ـ قال تعالى: ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها، إن الله كان على كل شيء حسيباً ﴾ [1] .

---

(١) النساء: ٨٦ .

فقدم رد التحية بأحسن منها على ردها بمثلها لأن الأول أكرم وأولى بأهل الفضل والإحسان ، والثاني فعل أهل العدل والانصاف ، فكان التقديم والتأخير جارياً على تقديم الأفضل على المفضول .

٢ ـ ومن هذا الباب ما جاء في سورة التحريم الآية ٤ : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ ، فبعد أن ذكر الله تعالى أنه المعين لنبيه ﷺ ومولاه الحق ، وأنه ناصره ومظهره على من يغضبه ويؤذيه من الخلق ، ذكر من يعينه من مخلوقاته وأولهم وأفضلهم هنا جبريل عليه السلام لما أتاه الله من القوى وزاده بسطة في الخلق ، فهو يناصر النبي عليه الصلاة والسلام ويظاهره على من يكيد له ، ثم صالح المؤمنين كذلك يظاهرونه ويناصرونه ؛ فقدم جبريل لكونه أعظم نفعاً وأشد بلاءً في الدفاع عن النبي ﷺ مع أفضليته ومنزلته الرفيعة عند الله ... ثم أتبعه بصالح المؤمنين وقدمهم في الذكر على الملائكة مما يشعر بأفضليتهم عليهم ... ولاحظ هنا لفظة « بعد ذلك » وما فيها من الإشارة والإشعار بمنزلة صالح المؤمنين وأنهم أفضل من الملائكة ، مع فضل الكل وكرامة الجميع عند الله ، والله تعالى أعلم .

٣ ـ ومن التقديم الذي يسوغه التفضيل مما استفاض ذكره في القرآن ذكر موسى قبل هارون ، لما له من الأفضلية فهو رسول الله من أولي العزم بعث معه هارون نبياً مصدقاً ومعيناً ، ولهذا قال تعالى في سورة طه الآية ٤٢ : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ﴾ فقدمه على أخيه لسابق فضله وعلو منزلته ... ، وفي هذا السياق نفسه ذكر موسى مقدماً على هارون في سورة الأنعام بعدما ذكر الله تعالى إبراهيم عليه السلام: ﴿ ... ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين﴾ الآية: ٨٤ .

ومن هذا الباب نفسه ما جاء في سورة الأعراف: الآية: ١١١ : ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ...﴾، والآية ١٢٢ في السورة نفسها: ﴿ رب موسى وهارون ..﴾؛ حيث قدم ذكر موسى في الموضعين.

أما ما جاء في سورة طه: الآية ٧٠ ـ من تقديم هارون على موسى في قوله تعالى: ﴿ فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ ، فظاهره أن هذا الأمر وقع موافقة لسياق النظم وجرياً على أسلوب السجع الذي تميزت به السورة من أولها إلى آخرها ـ تقريباً ـ فكان للألف المقصورة في موسى دورها في المحافظة على نسق النظم أثر بين في هذا التأخير والله أعلم .

٤ـ قوله تعالى في سورة المائدة: الآية: ٨٩: ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ﴾ ؛ وفيها أن الله تعالى رتب الكفارة على اليمين ؛ فجعل الإطعام أولاً ، والكسوة ثانياً ، وتحرير رقبة ثالثاً ، وصيام ثلاثة أيام رابعاً ، إذا تعذرت الثلاثة الأول ؛ فالذي يشعر به هذا السياق استحباب الإتيان بالكفارة وفق ترتيبها في الآية ؛ فقدم الأولى فالأولى ، فهذا الترتيب لبيان الأفضل ، والله أعلم ، وهو يشبه قوله ﷺ: (نبدأ بما بدأ الله به)[1] ويعني قوله تعالى: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله . . . ﴾[2] ؛ فابتداء السعي يكون من الصفا ، وانتهاؤه بالمروة ؛ كما جاء ذكرها في الآية ، وهكذا أفادنا السياق بيان ترتيب الأفعال ، ومعرفة الأولى بالتقديم .

٥ ـ قال تعالى في سورة النجم: الآية ٤٥: ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾؛ فهل تقديم الذكر هنا يفيد التفضيل ؟

الجواب: نعم . فإن قيل فما اعتباراته ؟

قلت: في هذه الآية إشارة إلى قيامه تعالى بخلق الزوجين ، ومعلوم أن آدم خلق قبل حواء ، فكان له عليها فضل السبق والاختيار ، بل إن حواء

---

(١) رواه مسلم في باب حجة النبي ﷺ ونصه: (ابدأ بما بدأ الله به) ، ص ١٧٧ ، جـ ٨ ، م ٤ ط دار الفكر .

(٢) سورة البقرة: ١٥٨ .

خلقت من ضلع آدم ؛ ليأنس بها ويسكن إليها ، فكان له عليها هنا بعض فضل أيضاً ، وكل ذلك بمشيئة الله واختياره . ومعلوم أن هذا الفضل هو للجنس على الآخر ، وليس المراد به عين كل ذكر على عين كل أنثى .

وهذا التفضيل أيضاً مرده ـ غير ما سبق ـ إلى أن القتال مكتوب على الرجال بخلاف النساء ؛ فإن جهادهن الحج ، ومن يجود بنفسه كيف يقدم عليه غيره . قال عمر بن أبي ربيعة [1].

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

ومما يقدم جنس الذكور على جنس الإناث في شرع الله أيضاً أنهم مكلفون بالإنفاق على المرأة ، وهذا جار على إطلاقه ، لا يضره خروج بعض النساء إلى العمل وإنفاقهن بعض المال على أسرهن ؛ لأن هذا منهن على سبيل الاختيار لا الاضطرار ؛ كما هو الحال عند الرجال . قال تعالى: ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ النساء: ٣٤.

ومما يقدمهم أيضاً كمال دينهم وعقلهم بخلاف النساء ؛ فإنهن ناقصات عقل ودين ؛ فأما نقص دينهن فإن إحداهن تقطع الصلاة أياماً وليالي عند حيضتها ، وأما نقص عقلهن فبسبب كفرهن نعم العشير ، ولهذا جعلت شهادتها نصف شهادة الرجل ؛ لأن الضلال أسرع إليها ، فهي أحوج إلى التذكير ، وأبعد عن العدالة ؛ قال تعالى: ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن

---

(١) هو عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي أبو الخطاب ، وهو من طبقة جرير والفرزدق ، لم يكن في قريش أشعر منه . ولد في ليلة مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسمي باسمه . اشتهر بالغزل والمجون ، ورفع إلى عمر بن عبدالعزيز أنه يتعرض لنساء الحاج ويشبب بهن ، فنفاه إلى « دهلك » ثم غزا في البحر فاحترقت السفينة به وبمن معه ومات فيها غرقاً . له ديوان مطبوع . وكتب الشاعر ابن بسام (٣٠٣ هـ) عن حياته مفصلاً وذكرت عنه دراسات حديثة: (عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل) للعقاد ، و « حب بن أبي ربيعة » لزكي مبارك ، و« عمر بن أبي ربيعة » لعمر فروخ . « وفيات الأعيان لابن خلكان » .
(١/٣٥٣) الشعر والشعراء ص ٢١٦ .

تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ...﴾ البقرة: ٢٨٢ ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ﴿ لا يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة ...﴾[1] ؛ فهي لا تصلح للولاية العامة ، ولا للقضاء .

وكيف تقضي وهي لا تصلح وحدها شاهدة إلا إذا عضدت شهادتها بأخرى .

وليس في كل ما ذكر إساءة للمرأة ، ولا غض من شأنها ، بل وضعها في المنزلة التي أنزلها الله إياها ، ولعمر الله فالخروج على ما قدره الله محض شطط وضرب من التمرد لا يتفق مع الإيمان ، فمن لم يعرف قدر نفسه هلك ، ومن عرف حده ووقف عنده فقد أحسن وابتعد عن الضلال وركب المركب السهل .

فالسبق في الخلق ، والقتال ، والإنفاق ، وكمال الدين والعقل ، أبرز أربع خصال يقدم الذكر من أجلها على الأنثى ؛ وهذا يفسر تقديم لفظة الرجال على النساء ، وما في معناهما في القرآن ، كما سيأتي في الأمثلة.. فإذا وقع العكس فلعلة معنوية اقتضاها المقام ، مما سنذكره إن شاء الله .

فمن ذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ فإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ الآية: ١٧٦ . لاحظ تقديم لفظ الرجال على النساء ، وهو من التقديم المشير إلى التفضيل .

ومثل قوله تعالى في سورة محمد ﷺ: الآية: ١٩: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ...﴾.

وكذلك قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ...﴾ الآية: ٥.

وقال تعالى في السورة نفسها وفي الآية التي بعدها: ﴿ ويعذب المنافقين

---

(١) الحديث رواه البخاري: (٤٤٢٥ ، ٧٠٩٩) ، والنسائي: ٢٢٧/٨ ، والترمذي: ٢٢٦٢ ، والحاكم: ١١٨/٣ ـ ١١٩ ، وأحمد: ٤٣/٥ ، ٤٧، ٥١ والبيهقي: ٩٠/٣، ١١٦/١٠ ، ١١٨ ، السنة للبغوي: ٧٧/١٠ .
وبألفاظ مختلفة: لا يفلح ، لن يفلح ، وما أفلح .

والمنافقات والمشركين والمشركات . . . ﴾ الآية: ٦ ؛ فقدم جنس الذكور على جنس الإناث كما هو ظاهر ؛ وهذا كثير جداً في القرآن ولا يحتاج إلى كثير تأمل للتحقق منه .

فإن وقع الأمر على خلاف ذلك ؛ كقوله تعالى في سورة الشورى: الآية: ٤٩: ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . . .﴾ ؛ فقد قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه القيم « تحفة المودود بأحكام المولود »[1] ما معناه: أنه تعالى قدم ذكر الإناث في هذا الموضع على الذكور جبراً لحال من ولدن له ؛ لما في تربيتهن من منشقة ، والحفاظ عليهن من عناء ، وترغيباً له فيهن ، ولهذا عظم النبي ﷺ أجر من أحسن تربية ثلاث بنات ؛ حتى جعلهن وقاءً من النار ، لمن رباهن وأحسن ، وهو تأويل من ابن القيم جميل معقول ، لما استقر في أذهان العرب وغيرهم قديماً من كراهة البنات ؛ فهذا مسوغ كاف لمثل هذا التقديم ، بينما ذكر تعالى في الآية ٥٠ من السورة نفسها: ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ ؛ فقدم لفظ الذكور على الإناث مرة أخرى ـ جرياناً على الأصل ـ لانتفاء العلة التي من أجلها خرج عنه في الآية السابقة ، والله أعلم بالصواب .

ثانياً: مراعاة الترتيب الطبيعي لتسلسل الأحداث والتسلسل الزمني لها

١ـ قال تعالى في سورة التوبة: الآية: ١١٢: ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون ﴾، وكذلك قوله تعالى في سورة الحج: الآية ٧٧: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ ؛ فهو في الآية الأولى قدم الراكعين على الساجدين ، وفي الثانية قدم الأمر بالركوع على الأمر بالسجود ، فما علة ذلك ، والسجود أعظم شأناً من الركوع وهيئته أدلُ على التعبد وأعظم في التذلل لرب العالمين . . .؟

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود لابن القيم ، ط دار المدينة للتوزيع ، بتصرف .

الواضح أن التقديم هنا جاء متوافقاً على الترتيب الطبيعي لوقوع الأحداث؛ فالركوع يقع قبل السجود . وليس المراد في الآيتين بيان أفضلية الأركان ، وهكذا يتضح الأمر . بينما قال تعالى في سورة آل عمران: الآية: ٤٣: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين . . .﴾ ؛ فأمرها بالسجود قبل الركوع فما علة ذلك . . .؟

الأمر في ذلك يسير ، إن شاء الله ، فلقد نص تعالى على أهم ركنين من أركان الصلاة في صدر الآية ؛ فالقنوت والسجود من أفضل أركان الصلاة ، فأمرها بإحسان هذين الركنين وصرف اهتمامها لهما بشكل غير عادي لفضلهما ، لما يذكر في القنوت من آيات الله ، ولما في هيئة الثاني من تعظيم لذات الله تعالى ، إضافة إلى أن الأمر بالقنوت والسجود جاء بصيغة المفرد ، مما يشير إلى العبادة الفردية الخاصة بمريم ، عليها السلام ، عندما تتعبد وحدها ، فأمرها بالاجتهاد فيها ، وحضها على أهم ركنين في صلاتها، بينما يشير قوله تعالى: ﴿ واركعي مع الراكعين . . .﴾ إلى الصلاة مع المؤمنين جماعة ، حيث يكون الاجتماع سائغاً ، والصلاة واجبة ، وسمة عامة يتميز بها كل المؤمنين .

فأشار إلى صلاتها وحدها أولاً ، بالركنين المذكورين ، وأشار إلى الحالة الثانية بالركوع ، ولعله ذكر الركوع وأراد الصلاة كسمة عامة لكل مؤمن ، فهذا الذي يظهر لي في هذه الآيات الكريمات .

٢- جاء ذكر الجن والإنس في القرآن كثيراً ، وأحياناً مقروناً أحدهما بالآخر . . . والاستقراء يدل على أن تقديم الجن على الإنس هو الأشهر والأكثر ، وذلك أنهم أسبق في هذا الوجود ؛ فالله تعالى خلقهم قبل أن يخلق آدم عليه السلام . وهم على ما يظهر لي أكثر في العدد أيضاً ؛ فهاهنا اعتباران معقولان لتقديم الجن على الإنس ، وهناك اعتبارات خاصة في بعض الأحيان متعلقة بالسياق الذي ترد فيه الآية ، مما يسوّغ تقديمهم على الإنس أيضاً .

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾

الذاريات: ٥٦ .

فهم مكلفون بالتوحيد والعبادة قبل الإنس ؛ باعتبارهم أسبق في الوجود ، فهاهنا سبب تقديم الجنّ بيّن .

ومنه قوله تعالى في سورة الناس: آية ٦: ﴿ من الجنة والناس ﴾ فالاستعاذة من الجن ـ وهم على كثرتهم وإجماع كفارهم على الكيد لبني البشر وفتنتهم ـ أولى من الاستعاذة من شياطين الإنس ابتداءً ؛ على الرغم من أن شياطين الإنس لا يقلون ـ أحياناً ـ شراً وكيداً لبني جنسهم عن شياطين الجن ، إلا أنهم ـ بالتأكيد ـ أقل عدداً ، والأمل فيهم أكبر . فإذا وقعت الاستعاذة من الصنفين ؛ فمن شياطين الجن أولاً ، وهذا واضح إن شاء الله .

ومن المواضع الأخرى التي لا تخرج عن سياق ما ذكرنا من العلل في تقديم ذكر الجن على الإنس قوله تعالى في سورة الأنعام: آية ١٣٠: ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا . . . ﴾ ؛ فلما كان الخطاب عاماً ، وهم أسبق في الوجود، وأكثر في العدد ، جرى تقديم ذكرهم ، والله أعلم ، ومنه قوله تعالى في سورة الرحمن: ٣٣: ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ﴾ ؛ فهذا الخطاب مناسب لتقديم الجن على الإنس ، إضافة لما ذكر من الأسباب ؛ ذلك أن النفاذ من أقطار السموات والأرض عمل معجز خارق للعادة ، لا يقدر عليه أحد إلا بإذن الله وبقوة منه ، فيكون الخطاب للجن ـ وهم أصحاب قدرات خارقة وقوى غيبية ـ مناسباً لإثبات تمام العجز وانعدام القدرة ، والإنس بعد ذلك تبع لمن تقدمهم من الجن ، فهم أقل منهم ـ بالتأكيد ـ قوة وأكثر عجزاً ، وأبين ضعفاً .

فهذا سبب آخر يسوغ تأخيرهم عن الجن في الذكر هنا ، والله أعلم .

وإذا ذكرنا من الآيات ما يلقي ضوءاً على معاني تقديم الجن على الإنس بلاغياً ـ على قدر علمنا ـ فلا بأس من ذكر بعض المواضع التي تقدم ذكر

الإنس فيها على الجن ، وعلة ذلك . وقصدنا ليس استقراء المواضع جميعاً، بل تمهيد الطريق لفهم أسرار التقديم والتأخير ، بتسليط الضوءِ على قدر معقول ومقبول من الآيات المختارة لذلك .

ومنها قوله تعالى: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ الإسراء: ٨٨ ؛ فالقرآن نزل على محمد ﷺ وهو من الإنس ، فالخطاب لهم ، والتحدي بإزائهم ، وهم أوّل من كذب وأول من حارب ؛ فإظهار إعجاز القرآن لهم أولى ، باعتباره نزل عليهم أولاً ، وهم كذبوا به أولاً ، فهو وإن كان رحمة للعالمين وللخلق أجمعين لكنهم المخاطبون به بالدرجة الأولى ، وقبل كل أحد ، فإن تقديم ذكرهم هنا على سواهم هو المناسب والمقصود ، فالعلة هنا ظاهرة ، والله أعلم .

ثم إذا حاول أن يأتي أحد بمثل ما جاء في القرآن ، فلا بد أن يكون هذا المحاول من البشر ؛ لما ذكرنا من أنهم أول المقصودين بخطابه وأمره ونهيه ، يقف وراءهم ، يدفعهم ويحضهم ويعينهم شياطين الجن من خلف ستار ، فكان ذكرهم بعد الإنس بياناً لموضعهم في هذه العملية ـ لو تمت ـ ولكن هيهات .

ومن مواضع تقديم الإنس على الجن في الذكر قوله تعالى في سورة الرحمن: الآية ١٤، ١٥ ، ١٦: ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ، وسبب ذلك ـ كما يبدو لي ، والله تعالى أعلم ، أنه جل شأنه فصل هنا خلق الإنسان بعد أن ذكره في مطلع السورة مجملاً عند قوله: ﴿ . . خلق الإنسان علمه البيان ﴾ ذاكراً نعمته عليه بتعليمه البيان ، وتمييزه بذلك عن الكثير من الخلق الأعجم، فعاد هنا وذكر خلقه من صلصال كالفخار ، متبعاً ذلك بذكر خلق الجن من مارج من نار ؛ فهذا موضع يبين شرف بني آدم من الإنس وفضلهم على الجن ، فتقدموا بالذكر عليهم ؛ فناسب الغرض هذا الخروج على مألوف ما عهدنا من تقديم الجن على الإنس فيما ذكرنا من الآيات .

ومما يسوغ تقديم الإنس أيضاً ـ لعلة أخرى ـ قوله تعالى في سورة الرحمن أيضاً آية ٣٩: ﴿ فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ ؛ وهذه العلة هي للحفاظ على اتساق النظم وروعة البيان والحفاظ على الجرس الذي دأبت عليه مجموعة من الآيات في موضع واحد ، فلا بد من تأخير ذكر الجن ، بل استعمال لفظ الجان أيضاً للدلالة عليهم بدلاً من لفظ «الجن» ليناسب السياق الذي دأبت عليه السورة في ختم آياتها بالألف والنون غالباً ، وأهمية ذلك في الحفاظ على جمال النظم ووحدة الإيقاع ، مع أنهم سواء في موقفهم يومذاك أمام رب العالمين عند قيام الساعة ، فهذا بين جداً ومسوغ كاف للذي ذكرت ، وهو باب واسع من أبواب التقديم والتأخير يحمل عليه أكثر من موضع في الكتاب الكريم .

وأخيراً ، ومن المواضع التي تقدم فيها ذكر الإنس أيضاً ، قوله تعالى في سورة الأنعام الآية ١١٢: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ . فلما كان الإخبار عن الأنبياء ، عليهم السلام وهم من البشر ـ ومن عاداهم ؛ وأولهم البشر الذين أرسلوا إليهم أولاً ، اقتضى أن يتقدم ذكرهم على شياطين الجن الذين ظاهروهم على العداوة ، وأوحوا إليهم بكل قريب في هذا السبيل . فهذا تعليل هذا والله أعلم .

وهكذا بقية المواضع لا تخرج عما ذكرنا عند التأمل .

٣ـ ومن هذا الباب أيضاً ؛ أي ترتيب الأشياء في الذكر حسب تسلسلها في الحدوث ، أو الأشخاص حسب سبقهم في الوجود: قوله تعالى في سورة الأحزاب الآية٧: ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسي بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ فبعد ذكر النبيين جميعاً عاد تعالى ونص على ذكر الرسل أولي العزم ، مبتدئاً بآخرهم لغرض الإشادة والتنوية بالفضل ، ولعلو الشأن ، مستثنياً محمداً ﷺ من الترتيب التاريخي الذي جرى ذكر غيره في سياقه ، فذكر نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم صلوات الله وسلامه حسب وجودهم التاريخي

وتسلسل ظهورهم الزمني على التوالي .

ومن ذلك أيضاً ، قوله تعالى في سورة النساء الآية ١٦٣ : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح وإلى النبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ﴾ ؛ فذكر تعالى من أوحى إليهم مبتدئاً بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهو آخر الرسل ، ولقد بينا علة ذلك آنفاً ، ثم عاد فذكر أول الرسل أولي العزم نوحاً عليه السلام ، وهو أسبقهم وجوداً ، تلاه بذكر إبراهيم وآله ، محافظاً على الترتيب الزمني لوجودهم .

وهذا السياق يتكرر في سورة البقرة آية: ١٤٠ : ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴾ ، ولا يبعد أن يكون هذا الترتيب مشعراً بالأفضل ، فالأفضل أيضاً ـ والله أعلم ـ لكنه خرج على هذا السياق التاريخي عند ذكر عيسى ، للعلة نفسها التي ذكرناها في تقديم محمد عليه الصلاة والسلام ، وهي التنويه بالفضل ، والإشعار بعلو المنزلة ، ثم ذكر بعده أيوب ويونس وهارون وسليمان وداود عليهم السلام .

ومما يلفت النظر هنا ؛ تقدم سليمان على أبيه داود ، مع أن أباه أسبق منه وجوداً وبعثة ، وتعليل ذلك سهل ـ إن شاء الله ـ فسليمان ذكر مع السياق ، بينما ختمت الآية بداود عليه السلام ، فكان تأخيره سائغاً لأنه ذكر مشاداً به ، منوهاً بفضل الله عليه ، بإتيانه الزبور ، ولم يذكر بالاسم المجرد كما ذكر سليمان عليهما ، وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام .

ويلاحظ في الآية أيضاً ، خلوها من ذكر موسى عليه السلام ، وهو من الرسل أولي العزم ، وجواب ذلك في الآية بعدها ، رقم: ١٦٤ ، حيث يقول تعالى: ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾ ؛ فكان ذكره عليه السلام وحده مع بيان صفته التي شرفه الله بها دليلاً على علو شأنه ، وبياناً لسمو منزلته ، وتفسيراً لعدم ذكره في السياق الأول ؛ وهذا من أسرار النظم القرآني المعجز ،

وأحكام اللفظ المدهش ، فليتعلم منه المتأدبون ، وليستفد منه أهل الذوق والتهذيب ؛ فليس إلى مثله سبيل ، ولا إلى محاكاته مثيل .

ومن ذلك أيضاً ، قوله تعالى في سورة الشورى الآية ١٣ : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ؛ فانظر كيف نوه بالذي أوحى إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، بالبدء به ، وإخراجه من سياقه التاريخي، وكيف حافظ على هذا السياق عند ذكر من عداه ، عليه الصلاة والسلام ، وهذا دليل يدعم ما سبق أن بيناه وشرحناه .

أما قوله تعالى في سورة المائدة آية ٧٨ : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ؛ فقد تقدم فيها ذكر داود على عيسى عليهما السلام ، مع أن الأخير أعظم منزلة بين المرسلين من داود ؛ ومرد ذلك ـ والله أعلم ـ إلى أن اللعنة التي حلت بمن كفر من بني إسرائيل كانت أولاً على لسان داود قبل ميلاد عيسى عليهما السلام ، ثم تكررت اللعنة على من كفر منهم على لسان عيسى فيما بعد ، فاقتضى هذا تقديم داود وتأخير عيسى في الذكر ، لأن تسلسل الحادث يقتضي ذلك ؛ وهو واضح إن شاء الله .

٤ـ قوله تعالى في سورة البقرة آية ١٤٢ : ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ ؛ يقع ضمن السياق الزمني ؛ فالشروق قبل الغروب ، فهو الأسبق ـ ولا ريب ـ فلا غروب إلا ويسبقه شروق ، وهكذا يتقدم ذكر المشرق وما في معناه على لفظ المغرب وما يشابهه بشكل مطرد في كتاب الله كلما ذكرا معاً ، ومثال ذلك قوله تعالى في سورة النور: آية ٣٥: ﴿ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ ؛ وقوله تعالى في سورة الرحمن آية ١٧ : ﴿رب المشرقين ورب المغربين ﴾ ؛ وقوله في سورة المعارج آية ٤ : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ﴾ .

وفي مواضع أخرى لا ضرورة لإحصائها .

ثالثاً: مراعاة دعاوي خاصة لفظية أو معنوية .

١- ومن الترتيب البليغ الذي يفيده التقديم والتأخير ، مما يفعل في نفس السامع العجب ، ويدله على عظيم القدرة الإلهية: قوله تعالى في سورة النور الآية ٤٥: ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ ؛ حيث انتقل الذكر من الأعجب إلى العجيب ، فابتدأ بذكر من يمشي على بطنه ، وأتبعه بذكر من يمشي على رجلين ، ثم من يمشي على أربع ، وهذا لبيان كمال القدرة وعجيب الخلق ؛ لذلك تأخر ذكر من يمشي على رجلين وفيهم البشر - رغم أفضليتهم - على من سبقهم ، لأن المقصود من الذكر هنا غير التفضيل ، بل ما قدمناه ، والله أعلم بمقاصده.

٢- ومن لطيف التقديم والتأخير - أيضاً - مما يظهر دواعي الخروج على السياق التاريخي لحادثة ، ما جاء في سورة البقرة ، الآية ٣٠ ، عندما قص الله قصة خلق آدم ، فكان السياق التاريخي يقتضي ذكر سجود الملائكة لآدم بعد ذكر خلقه ، ثم ذكر تعليم الله له أسماء كل شيء ؛ كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ . وظهور فضله بذلك على الملائكة ، فيعلمون علة سجودهم له .

ولكن الذي ذكر في سورة البقرة غير ذلك ، فقد ذكر بعد خلقه تعليمه أسماء كل شيء ، ثم عقب بذكر سجود الملائكة له ، قال تعالى في الآيات (٣٠ - ٣٤) من سورة البقرة: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات

والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾. يقول ابن كثير في تفسيره [1] تعليلاً لهذا: « وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا تعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم من العلم » .

قلت: وهذا مسوغ قضت به ضرورة عارضة ، وحيث توجد مثل هذه الضرورات يسوغ التقديم أو التأخير ، ويصح الخروج على سياق الأحداث ؛ إمعاناً في البيان ، وغلقاً لما قد يفضي إلى سوء الفهم .

والله أعلم بمراد النظم ، فله البيان المعجز والحكمة البالغة ، جل شأنه .

٣- ومما أمر به تقديم ضرب المثل للكافرين في سورة التحريم قبل ضرب المثل للمؤمنين ، مما اقتضى تقديم ذكر امرأة نوح وامرأة لوط عى امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وهما من المؤمنات ، بينما الأوليان كافرتان ، فذلك يعود إلى أن ذكرهما معاً جاء مجملاً في آية واحدة وقعت بعد أمر الله نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، وبيان سوء مصيرهم ؛ فكان هذا أنسب مع السياق .. فلما ضرب المثل للمؤمنين بذكر امرأة فرعون ، خصها تعالى بآية كاملة فصل فيها حسن عاقبة تلك المرأة المؤمنة وثباتها بالرغم من فتنة فرعون ، ولجوئها إلى الله تعالى تطلب منه الهدى والسداد والنجاة ، وكذلك فعل تعالى مع مريم بنت عمران التي أحصنت فرجها ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين ، كما أشاد بذكرها القرآن ، فكان ذكر المرأتين مثلاً يحتذي به المؤمنون على شيء من التفضيل والإشادة بالذكر ، كما كان خاتمة حسنة للسورة ؛ تبهج النفس ، وتقوي العزيمة ، وتستثير الهمة ؛ فمن يتأمل الآيات التي سنوردها يستطيع إدراك ذلك وتذوقه والارتياح إليه .

قال تعالى في سورة التحريم الآيات ٩ ـ ١٢: ﴿ يا أيها النبي جاهد

(١) تفسير ابن كثير ، ص ١٢٠ ، جـ ١ ، ط دار الأندلس .

الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ، ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ .

وهكذا الحال كلما اقترن ذكر المؤمنين والكافرين معاً ، فإن الله تعالى يذكر أولاً ما يناسب المقام ـ مع بداهة كون المؤمنين أفضل وأهل للتكريم ؛ فالقرينة هنا واضحة لا لبس فيها ، فإن تقدم ذكر الكافرين لا يوهم بفضلهم أبداً ؛ إذ لا فضل لهم ولا كرامة تقتضي الإشادة بهم ؛ إلا في مواطن التشهير بهم والتشنيع عليهم لكفرهم وسوء عاقبتهم ، فالبحث هنا عن علة التقديم أو التأخير يكون خارج نطاق التفضيل ؛ فإذا كان الموضع موضع تشريف فالمؤمنون يذكرون أولاً ولا ريب .

وهذا مثل آخر في قوله تعالى في سورة التغابن الآية ٢: ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ؛ فقد تقدم ذكر الكافر على المؤمن بسبب الكثرة الغالبة في الخلق لأهل الكفر على أهل الإيمان ، وهم قلة في أغلب الأزمان ، ومن يقرأ الآيات بإمعان ، ويربط ما قبلها بما بعدها ، تتبين له معانٍ قد تخفى على من يقرأ الآية مفردة عما سواها .

٤ـ ومما يرد ذكره مقترناً بعضه ببعض في مواضع كثيرة من القرآن ، السموات والأرض ، بتقديم السموات في أكثر المواضع ، ، كقوله تعالى في سورة الإسراء آية ٥٥: ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ ؛ وفي الآية ٩٩ من السورة نفسها: ﴿ أولم يروا أن الذي خلق السموات والأرض...﴾ ؛ وفي سورة فاطر الآية ٤١: ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ...﴾ ؛ وفي سورة الأحزاب آية ٧٢: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض ....﴾ ؛ وفي سورة الحديد آية ٤: ﴿ هو

الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام . . .﴾ ؛ وفي كثير من المواطن الأخرى . ولعل تعليل ذلك أن السماء خلقت قبل الأرض ، فهي أقدم في الوجود ، إضافة إلى أنها أكبر من الأرض ، وهو مسوغ ثانٍ لهذا التقديم ، فإن ورد الأمر بخلاف ذلك ، كقوله تعالى في سورة فصلت الآيات ٩ ـ ١١ : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ ؛ فالذي أراه هنا أن السياق قبل الاية المذكورة كان يتحدث عن تكذيب الكافرين بالرسالة وإعراضهم عن الدعوة ، فصرف انتباههم إلى خلق الأرض القريبة منهم ، وشنع عليهم كفرهم بأحقية الخالق بالعبادة وحده ، مع إقرارهم بخلقه وحده، فكان ذكر الأرض أقرب إليهم ، وأدعى إلى لفت نظرهم وبيان شدة تناقضهم وقبيح كفرهم ، فلما تحقق الغرض رجع السياق إلى وضعه الأول في تقديم ذكر السماء على الأرض في قوله: ﴿فقال لها وللأرض . . .﴾.

وقد يكون لمراعاة النظم والحفاظ على جرس الآيات ـ كما ذكرنا آنفاً ـ أثر في الخروج على مألوف التقديم والتأخير ؛ كما في سورة طه الآية: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى ﴾ ؛ بينما قال تعالى بعد ذلك: ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ ؛ فعاد إلى تقديم ذكر السموات على الأرض .

وهكذا ، لكل موضع حكمة ، ولكل بيان سر ، والله تعالى أعلم وأحكم .

٥ـ وكذلك في تقديم الشمس على القمر ، في أغلب المواضع التي ذكرا فيها معاً ؛ كقوله تعالى في سورة الرحمن الآية ٥ : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ ؛ وفي سورة الأنبياء الآية ٣٣: ﴿ هو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ ، وفي سورة العنكبوت آية ٦١ : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ ؛ وفي سورة

فصلت آية ٣٧: ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ ؛ وفي سورة القيامة الآية ٩: ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ ؛ وهكذا . وعلة ذلك ـ كما تبدو لي ـ أن الشمس أكبر من القمر ، وضياؤها أقوى ، وحضورها أكثر، ولعل خلقها أسبق ـ أيضاً ـ إذا أخذنا قوله تعالى: ﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ هذا المأخذ ، وفهمنا منه أن تقديم ذكرها في الآية لسابق وجودها بالرغم من عدم قطعية هذا الدليل ، لأن الواو تفيد التسوية ، لكن المقصود بيان سبب تقديم الشمس على القمر ، وفيما قدمنا أكثر من مسوغ لذلك ، طارحين جانباً ما يقوله الفلكيون من كون القمر مجرد تابع للأرض التي تدور حول الشمس ، وأنه كوكب مظلم يستمد نوره من ضوء الشمس .

فإن قيل: فما علة الخروج عن هذا السياق في قوله تعالى: ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ نوح: آية ١٦ ؟ قلنا إن سبب ذلك ـ والله أعلم ـ يعود إلى توافق السجع ؛ فهو الذي قضى بذلك . فإذا قرأنا الآية ١٨ من السورة نفسها وجدناها تنتهي بالقافية عينها التي تنتهي بها كلمة « سراجاً » وكذلك الآية ٢٠ ؛ وهكذا ينجلي الأمر ، وتتضح العلة ، والله أعلم بما يريد .

الخاتمة:

فيما تقدم من الأمثلة والشواهد القرآنية ، وما صاحبها من تعليقات أردت بها شرح شيء من حكمة التقديم والتأخير ـ كما فهمتها ـ يتبين أن علة الأمر تتلخص فيما يأتي:

١ـ يتقدم الأفضل على المفضول في الذكر ، وإذا جاء الأمر بخلاف ذلك ـ على عادة العرب أحياناً ، فهم يبدؤون بالمؤخر ويؤخرون المقدم كما يقول الثعالبي [1] في كتابه (فقه اللغة) فهذا مرده إلى علة بلاغية ؛ تتعلق

---

(١) الثعالبي: هو عبدالملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي ، من أئمة اللغة والأدب ، من أهل النيسابور ، كان فراءً يخيط جلود الثعالب فنسب إلى صناعته ، واشتغل بالأدب والتاريخ فنبغ من كتبه: « يتيمة الدهر » مطبوع و « فقه اللغة »

=

بالأسلوب ؛ أو بالمعنى ، تدعو إلى مثل هذا الخروج عن السياق .

٢ـ تسلسل الأحداث الزمني يستدعي تقديم بعض الحوادث على سواها أو بعض الأشخاص على غيرهم ، حتى وإن كان المقدم مفضولاً ، فالسياق التاريخي ـ بحد ذاته ـ كافٍ للتقديم .

٣ـ هناك دواع خاصة معنوية ؛ كالكثرة والقلة ، وأخرى لفظية ؛ كمراعاة السياق ، تستدعي ترتيب الأشياء في الذكر بما لا يخل بتلك الدواعي ، ويكون التقديم أو التأخير ـ أحياناً ـ مفيداً معنى لا يتحصل إلا به ويفوت إذا تغير الترتيب .

وقد ضربنا الأمثلة لكل ما تقدم محاولين شرح هذه الظاهرة والتعمق في فهم مدلولاتها ، والإفادة مما توحي به من معانٍ لطيفة وأسرار خفية لا يدركها إلا العالمون .

وعندما ذكرنا كل ذلك لم نغفل عن بيان ما جاء على خلافه ، كما فعلنا في أغلب المواضيع التي أوردناها ، ذاكرين الغالب والنادر أو الكثير وخلافه ، معللين ذلك على قدر طاقتنا من الفهم ، وما أوتيناه من العلم وهو نزر يسير ، ونريد أن نؤكد هنا أن التأمل ، ومحاولة فهم العلة التي من أجلها يكون الخروج على الأمر الغالب في التقديم والتأخير ، يقودنا بإذن الله إلى معنى طريف يقف وراء مثل هذا الخروج على الأمر المألوف ، وهو دعوة ـ قديمة جديدة ـ إلى التدبر والتأمل عند تلاوة آيات الذكر البينات ؛ الأمر المقصود من التلاوة ، والمحضوض عليه .

ربنا خذ بأيدينا إلى ما فيه رضاك ، ودلنا على سبل هداك ، واجعل عملنا كله خالصاً لوجهك صواباً في سبيلك ، صالحاً عندك ، وانفعنا به والمسلمين في الدنيا والآخرة .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

= و«سحر البلاغة » و« لطائف المعارف » وكتب كثيرة جداً بعضها مطبوع وبعضها مخطوط. توفي سنة ٤٢٩ هـ عن ٧٩ سنة ، « وشذرات الذهب: ٣/٢٤٦ » ، الأعلام: ٤/٣١١ .